الإطار المرجعي ونظرية التسامح
للدكتور فتحي صالح

You take blood to make sperms. You take sperm to create an animal . You use the animal to create intelligence. Life keeps to more life. You push me out on many journeys. Then you anchor me with no motion at all.

كما أن لكل شخص له بصمته الخاصة فكل منا له شخصيته المتفردة. و لكن بالنظر إلى تركيبة كل فرد سنجد صفات مشتركة بين العديد من الناس، و هذا هو الذى يجعلنا نحدد الانتماءات الخاصة بشخص ما، سواء إن كان ينتمي إلى جماعة عرقية أو ثقافية أو دينية أو وطنية.

المجموعات الستة التي تنقسم إليها بصمات الأصابع (من أعلى الشمال إلى أدنى اليمين) : عقدة- عقدة مزدوجة- جيب العقدة المركزى- الحلزون البسيط- القوس البسيط- القوس الخيمى الشكل.

أصل هذه الصفات يبدأ أساساً منذ الميلاد بالصفات الموروثة من خلال التكوين الجيني، ثم تحدث لها تعديلات باكتساب الصفات التى تصل للفرد عن طريق المجالات التى تعمل على تكوين شخصيته، وهي في المقام الأول: العائلة ثم المجتمع ثم المدرسة.. الخ... في النهاية فإن الصفات المكونة لكل جماعة هى التى تحدد إطار المرجعية التى تحكم بها على الأشياء. هذا الإطار بالتأكيد مختلف عن جميع الأطر المحيطة به. إذا استطعنا أن نتجاوز حدود هذه الأطر، حينئذ قد نوجد قدراً من التسامح ما بين الجماعات المختلفة.

خلال مسار التطور البشرى تعلم الفرد القيم والدين والعلم والتفكير بدرجات مختلفة. فى كل لحظة يكون لكل فرد درجة ما من الارتباط مع أصدقائه أو قبيلته أو جيرانه أو مدينته أو بلده أو منطقته، وقد يكون هذا الارتباط مع العالم ككل. كما أنه سيكون له ارتباطاً بدين ما، أو حتى باتجاه معين داخل هذا الدين سواء إن كان هذا الاتجاه اتجاهاً متسامحاً أو أصولياً أو صوفياً الخ.... وكما نرى فالأديان التوحيدية ظهرت منذ بضعة آلاف من السنوات عن طريق سيدنا إبراهيم. وبمرور الوقت انقسمت إلى اليهودية و المسيحية و الإسلام . وعلاوة على ذلك تم تقسيم هذه الأديان إلى طوائف مختلفة. و هذا هو تماما ما يحدث مع بصمات الأصابع؛ فكلها تبدأ من أصل واحد ثم تنقسم إلى ستة مجموعات ومنها إلى مجموعات فرعية.

وفى نفس الوقت تم تكييف عقل الإنسان للتفكير بأسلوب علمى معين، سواء إما أن يتقبل المفاهيم كما هى بدون نقاش أو أنه يجادل و يعترض على الأفكار الموجودة، أو يتبع أسلوباً في التفكير ما بين هذين الأسلوبين.

وفي النهاية قد نجد أن كل صفة لها شىء مشترك مع المجموعات الأخرى. فبالنسبة للإنسان المقيم فى مص، فيمكن اعتباره مصري بالإضافة لكونه عربي وإفريقي، ومن سكان حوض البحر المتوسط وبالطبع فهو منتمى للجنس البشري بصورة عامة.

لكي نفهم تصنيف الصفات بهذه الطريقة سوف نعطي مثالاً عن الصورة فى التلفزيون الملون.. هذه الصورة مكونة من آلاف النقاط، كل نقطة مكونة من ثلاثة أجزاء أساسية: الأحمر والأخضر والأزرق، كل من الألوان الثلاثة له درجة تشبع مختلفة، تبدأ من الألوان شديدة الزهو لتصل إلى الألوان شديدة الدكنة. إن تركيبة الألوان الثلاثة بنسب مختلفة يعطي ملايين من الألوان العديدة. و بناءً على ذلك فكل لون ضمن ملايين الألوان هذه هو لون متفرد ومع ذلك فالنقاط المتضمنة كماً أكبر من اللون الأخضر تنتمي للمجموعة الخضراء. وعلى الرغم من أن هذه النقاط تحتوي على ألوان مختلفة على مستوى فردي ولكنها برغم ذلك تجمعها صفة مشتركة؛ وهي اللون الأخضر. يمكن تطبيق نفس الفكرة على ألوان الطيف المختلفة، وفي نفس الوقت فكل هذه الألوان تنتمي إلى مجموعة واحدة وهى اللون الأبيض(أو بالمثل للبشرية) وهذا التصنيف للألوان يتوافق مع القيم و الأديان والأعراق والجماعات الوطنية.

الإطار المرجعى:
في نظريته للنسبية عّرف أينشتين مفهوم الإطار المرجعى بالتعريف الآتي: " إن كل ظواهر الطبيعة وكل قوانينها واحدة في كل الأنظمة المتماثلة التى تتحرك مرتبطة ببعضها البعض". فهى تعكس التناغم الكونى للقوانين الطبيعية. لا يوجد إطار مرجعى ثابت، فكل شيء في حركة مستمرة. ولقد قال فيثاغورس وهو على فراش الموت أن أمنيته الوحيدة هي أن يستمع إلى" اللحن الكونى" أى الموسيقى التى يعزفها الأركسترا الكوني في تناغم تام. وكلنا أعضاء في هذا الأركسترا.

يبدو أن جماعات مختلفة ذات صفات معينة لها أطر مرجعية مختلفة ووفقا لذلك فإن لها حكماً مختلفاً على الأمور. على سبيل المثال: نظرة المسلم والقبطي لفكرة أكل الخنزير.. إطار المسلم سوف يمنعه من الأكل فى حين إطار القبطي لا يجد أى مانع من أكل هذا اللحم.

إن المعرفة الموجودة لدى الإنسان اليوم تحمل المعرفة المتراكمة عن الأجيال المتتالية. نحن نعلم أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس، وأن الشمس جزء من مجرة، والمجرة جزء من الكون المكون من ملايين المجرات. كل هذه المعرفة وصلت إلينا نتيجة جهود أينشتين المبنية على جهود نيوتن الذى بدوره أخذ من جاليليو الدارس لأعمال كوبرنيكس. وكما نعلم فإن كوبرنيكس اطلع على أعمال البيتانى والخوارزمي، وهم علماء بحثوا فى أعمال بطليموس السكندري الذي اعتمد في نظرياته على جهود العملاقين الإغريقيين: أرسطو وأفلاطون. وكما نعلم فإن أرسطو وأفلاطون وصلوا لقمة علمهم وحكمتهم بدراسة علوم مصر القديمة، وبلاد السوماريين القديمة.

بداخلنا يكمن نتاج كل البشرية. وهذا هو السبب فى أنه عند وفاة أى إنسان فى مصر يقال له "البقية فى حياتك". وهذا يعني أننا نحمل داخلنا آثار لأناس آخرين، كما أن الآخرين يحملون آثاراً لنا أيضاً. وهذا ما نستطيع أن نسميه "الوعي الجماعي" الذي تحدث عنه كارل جوستاف يونج، والذي بحث عنه وأثبت وجوده العديد من العلماء كما يمكن أن نسميه "الوحدة" التى تحدث عنها الصوفيون، أو قد نسميه أي شيء يروق لنا، ولكن أياً كانت التسمية فالمهم هو الوعي بهذه الحقيقة؛ لأن الوعي سيساعدنا على العمل من أجل تنقية الآثار التي سوف نورثها لخلفائنا. ومع أن كل فرد يعتبر خيط فى نسيج البشرية المنسوج على مر التاريخ، ولكن أحيانا عندما نرى الخيط منفصلاً عن النسيج فنحن لا ندرك القيمة الحقيقية. فالمشكلة اليوم هي الإحساس بالانفصال الذي يشعر به البشر بسبب عصر التخصص الذى نعيشه. ولن نستطيع إدراك أهمية الدور الأساسي لكل خيط من خيوط النسيج الا إذا نظرنا نظرة شمولية على تطور البشرية. فأسلافنا كانوا يعلمون أن " تحسب نفسك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر".

لقد قال الشاعر العظيم جلال الدين الرومي:

You take blood to make sperms. You take sperm to create an animal. You use the animal to create intelligence. Life keeps to more life. You push me out on many journeys. Then you anchor me with no motion at all.

في هذه المقولة يتغنى جلال الدين الرومى بوحدة الخلق ووحدة التطور التى تستلزم إسهام كل خيط من خيوط النسيج البشرى.

لو أردنا أن نتكلم عن السلام اليوم فعلى كل إنسان أن يدرك أن كل عمل يقوم به وكل كلمة ينطق بها وكل فكرة تمر في ذهنه وكل مشاعر يشعر بها، كل هذا يترك أثره على الكون كله، ويدرك أيضاً أنه هو وأسلافه و ذريته هم جزء لا يتجزأ من هذا الكون.... وقتها سينمو عنده الوعي اللازم لمزيد من السلام، ولن يوفر أي جهد في سبيل تنقية جهازه، وسيبدأ في تحمل مسئولية أعماله. وهكذا ينتشر العدل.